المحاضرة الرابعـــة:

الانتشار الثقافي:

-إذا كانت الثقافة تحتل جانبا مهما في قيام البناء الاجتماعي بمهامه ورسالته، فإنها من أكثر الجوانب أهميه في استمرار المجتمعات وتطورها من طور إلى آخر، وهذه العلاقة الجدلية بين المجتمع وثقافته هي التي تشكل شرط تطور الثقافة وتغير وظائفها وتبدلها، وهي المسؤولة أيضا عن انتقال الثقافة من جيل إلى آخر، فالثقافة تتطور بالانتشار داخل البنى الاجتماعية، ومن بنية اجتماعية داخلية إلى بنية اجتماعية في مجتمع أخر. وتأتي خاصية انتشار الثقافة من خلال طبيعة الإنسان الاجتماعية. وعن طريق حركة الثقافة يحصل الاحتكاك والتعلم والاكتساب فالفتاة التي تشاهد فستان معلمتها وتعجب به تعمل على تقليده أو شراء ما يماثله. والأديب الناشئ يحاكي الأديب الذي يتميز بأسلوب معين في الكتابة، ويحاول أن يقلده... الخ...

مما تقدم يتبين أن العناصر الثقافية في حالة انتقال وانتشار، واستقرار واستيطان وتبادل. وانتشار الثقافة إما أن يتم بشكل عفوي أو إرادي داخلي وخارجي، وثمة جهات تخطط لنشر ثقافتها في المجتمعات الأخرى، وهو ما يسمى عادة بالغزو الثقافي.

وحري بالقول إن حركة الثقافة تختلف من عصر إلى عصر، ومن مجتمع إلى أخر. فإذا كانت الثقافة في المجتمعات الأقل تطورا تمتاز بحركتها البطيئة، وفق آليات محددة، بسيطة، وغير معقدة، فإن حركتها في المجتمعات الصناعية أكثر سرعة وحيوية. ولها آليات متنوعة بالغة التعقيد.

والثقافة في المجتمعات المتقدمة تخضع للتخطيط والضبط والتوجيه الذي يكفل لها القيام بمهامها التي يرمي إليها أصحاب القرار السياسي. وهذا يعني إجرائيا أن هناك ثقافات "ملقية" وثقافات "مُتلقية" والثقافة الأولى، على وجه العموم، موجودة في

المجتمعات الصناعية، أما الثانية فإنها من شأن المجتمعات الأقل نموا، ومنها الأمة العربية.

وقد ترتب على هذا التمايز أن المجتمعات الصناعية تملك الكثير من بنوك المعلومات ومن مخابر الثقافة. وهذه وتلك مربوطة بأجهزة المعلومات والقنوات الفضائية. وقد وضعت هذه الآليات في خدمة الثقافة لنشرها هنا وهناك. واختراق العمليات الثقافية في المجتمعات الأخرى ومنها النامية، بحيث يؤدي الاختراق إلى تكييف الشخصيات القومية مع توجهات الثقافة الملقية أو الغازية، وخططها، وسياستها.

وليس من المبالغة القول إن العديد من الشخصيات القومية أصبحت تتصرف في جوانب من سلوكها اليومي على الطريقة الأوروبي – الأمريكية، تطرب على طريقتهم، وتلبس حسب أزيائهم، وتركب وسائل المواصلات حسب إنتاج ثقافتهم.. الخ. وكم من قيمة أو وازع أو عادة وتقليد انتشرت من الثقافة الأوروبي– أمريكية إلى داخل الثقافة العربية، سواء كان الانتشار عفويا أو مقصودا، فأصبح من النادر أن تجد مجتمعا من المجتمعات بعيدا عن تأثير الثقافة الغربية. ألا يحق لنا القول إننا أصبحنا في عصر الاختراق الثقافي الغربي نمتل فاربواز الذي تتغير اتجاهاته وغرائزه عن طريق الصدمة الثقافية التي يتلقاها. وإن علم اجتماع المنازعات الموجود في جامعات أمريكية هو الذي يقرر هذه الصدمات، ويحدد زمانها ومكانها و عناصرها؟.

الخلاصة، أن مطلع هذا القرن قد تميز بصعود حركات التحرر الوطني والقومي وأن عقده الأخير أخذ يشهد صعود دور مراكز الأبحاث والدراسات التي تقود وتوجه انتشار الثقافات الأوروبي– أمريكية، الهادفة أصلا إلى تطويع شخصيات الشعوب في "العالم الثالث" لصالحها.

وبهذا الصدد كتب الشاعر البريطاني الأصل "ت". س. اليوت".. وكثيرا ما تتخذ القوة وسيلة لفرض ثقافة أجنبية على ثقافة أدنى، وهذه مشكلة لا يمكن حلها، وهي تتخذ أشكالا كثيرة. وثمة مشكلة تتصل بثقافة أدنى للمرة الأولى، وثمة مشكلة ثانية عندما تكون الثقافة الوطنية قد بدأت تتحلل فعلا تحت تأثير الثقافة الأجنبية، وحيث يكون أبناء الوطن قد تشربوا من الثقافة الأجنبية فعلا أكثر مما يمكنهم طرده في وقت من الأوقات (.....) لينضجوا في الخليط الثقافي الذي أوجدناه ".

وبطبيعة الحال فان الخليط إياه تتعدد مواده، وتتنوع عناصره إلى حد يمكن السياسات الثقافية الغربية من احتواء شعوب العالم والهيمنة على تفكيرها. وعلى أرض هذه السياسات تجهض مشاريع النهضة، ومنها المشروع الحضاري العربي. ثم أليست السلبية السياسية الموجودة الآن في الشارع العربي. يعود جزء منها أو وجه من وجوهها إلى إيحاءات الثقافة الأمريكية واتجاهاتها النفسية.